# الباب الحادى عشر

# تطور الحياة النفسية

## مكونات الغريزة الجنسية :

ذكرنا فيما سبق معنى الغريزة الجنسية بوجه الاجمال ، وذكرنا أن هذه الغريزة تأخذ صورا مختلفة وتنتقل من صورة إلى أخرى عند الطفل ، حتى تصل إلى صورتها النهائية الناضجة عند البلوغ ، والآن نأتى إلى تفصيل هذا الاجمال .

فالغريزة الجنسية اسم اطلق على مجموعة من النزعات البدائية ، التى تصل إلى الاشباع بطريقة حسية ، أو بعبارة أخرى مجموعة من النزعات التى ترمى إلى اللذة الحسية بمختلف أنواعها .

وهذه النزعات لا تنشأ فى وقت واحد ، وانما تتوالى بكيفية خاصة ، كما أن الهدف الذى ترمى اليه يناله من التطور والتحويل مثل ما ينالها هى ، حتى تصل إلى الهدف النهائى للغريزة وهو التناسل .

ويطلق على هذه النزعات "مكونات الغريزة الجنسية" تمييزا لها عن الغريزة المتكاملة كما تظهر فيما بعد .

وهذه المكونات تتناول أجزاء مختلفة من الجسم ، بمعنى أن هناك مناطق من الجسم تتميز بحساسية كبيرة ، وتكون مصادر للذة ( أو الألم ) ، إذ تكون هذه المناطق محملة بقدر كبير من الطاقة الغريزية ، وعلى ذلك تكون حساسيتها عبارة عن العلامة الشعورية لتركز الغريزة الجنسية فيها ، والمنطقة من الجسد التى تتميز بالحساسية فى أى طور من أطوار الغريزة ، تفقد شيئا من هذه الحساسية عندما يحل الطور الثانى ، وتنتقل الحساسية الجنسية إلى المنطقة التالية . قلنا إنها تفقد شيئا ولم نقل إنها تفقد كل طاقتها ، لأن قدرا من هذه الطاقة يبقى فيها ، وهذا القدر قد يستخدم فيما بعد فى التمهيد لعملية التناسل نفسها ، وسنرى فيما يلى

ما يوضح ذلك . والقدر الذى تفقده من الطاقة لا ينتقل كله إلى المنطقة التالية ، وانما يستنفد جزء منه فى اعلاء هذا المكون من مكونات الغريزة فيتحول هذا الجزء كما عرفنا فى الاعلاء إلى غرض لا جنسى فلا يرمى إلى لذة حسيه ، بل إلى " لذة معنوية " ، ومعنى ذلك أن يكون هدفه استخدام قدر من الطاقة الغريزية فى غاية تكون مما يحمده المجتمع .

فالطاقة التى تتركز فى أى طور من أطوار الغريزة مآلها أن تتفرع إلى فروع ثلاث ( الأول ) يتجه عن طريق الاعلاء إلى هدف لا جنسى ( الثانى ) يتحول إلى الدور الثانى من أدوار الغريزة و يؤول فى النهاية إلى الغريزة بصورتها المكتملة فى دور البلوغ و ( الثالث ) يبقى على حاله ليعطى هذه المنطقة أهمية ثانوية دائمة بالنسبة لوظيفة النسل نفسها ، فيمهد لها تمهيدا وظيفيا كما سبق أن مهد لها تمهيدا تطوريا .

وعلى ذلك فهذه المكونات هى عوامل النضوج الجنسى ، كما أنها عوامل النضوج الاجتماعى والثقافى .

## مناطق الغريزة الجنسية :

يمكن أن نقول بصفة عامة إن المظهر الجسدى للغريزة الجنسية هو عبارة عن حساسية خاصة ممتازة ترمى إلى التهيج وتلتمس اللذة عن طريقه بوسائل حسية أو ميكانيكية صرفة ، خصوصا فى مبدأ ظهورها ، و يكون مصدر الحساسية واللذة عند الطفل فى المبدأ فى حالة عامة غامضة ، غير محددة لا فى طبيعتها ولا فى مواضع الجسم التى تتأثر بها ، فيكون سطح الجلد بأكمله حساسا ، وهذا هو دور الحساسية العامة و يتلو هذه الحساسية العامة دور تتركز أثناءه الحساسية فى مناطق معينة بالتدريج ، ولكن تبقى للحساسية الجلدية العامة أهميتها ولها علاقتها المباشرة بالعملية الجنسية كما نعلم . ومناطق التركيز هى بوجه عام مخارج الجسم وأعضاء الحس .

وأول هذه المراكز الفم ، إذ تتركز فيه منطقة حساسة تدفع الطفل إلى التماس التلذذ بهذا العضو و يرجع ذلك إلى استعماله فى الرضاعة ، وإلى تركز الاشباع

والحرمان فى محيطه ، وعلى ذلك يصبح هو "الجبهة" التى تتناضل فيها الغريزة ، فتنال الاشباع أحيانا والحرمان أحيانا أخرى ، وبذلك يصبح أداة للذة وسيلة للاعتداء — وهذه "المرحلة الفمية"[1] من أهم مراحل الغريزة لأن ما يتركز فى الفم من الطاقة يخدر جزء منه إلى المكون الثانى من الغريزة ، بينما يبقى جزء من الحساسية بقاءً دائما ، يخدم الغريزة كما قلنا ويتمثل ذلك فى أهمية التقبيل من الناحية الجنسية الصرفة — أما سائر الطاقة الغريزية فينصرف إلى استخدام الفم فى أغراض اجتماعية وثقافية فيصبح أداة التفاهم والتحاب والسمو الى غير ذلك من النواحى التى تعتبر من قبيل الإعلاء — وهو ما يزال يستخدم سلاحا للاعتداء والدفاع كما استخدم من قبل ، غير أن الاعتداء يتحول من اعتداء مادى صرف — عض الثدى وماليه — الى اعتداء معنوى بالقول والسباب والهجاء .

وكما أن الفم من أوائل المناطق التى تتمركز فيها حساسية خاصة فكذلك الشرج[2] لما يجده الطفل من الراحة عند التبرز ، ولما يرتبط بهذه العملية من الألم ، سواء أكان ألما داخليا منشؤه عدم انتظام وظائف الامعاء ، أم خارجيا منشؤه ما يطالب به الطفل من انتظام العادة ، وما يناله من عقوبة أو تأنيب نتيجة لاستخدام هذه الوظيفة استخداما طبيعيا بالنسبة اليه ، ولكنه مستنكر من البيئة .

وعلى ذلك فهذه الوظيفة ينالها شىء كثير من المقاومة والقمع والكبت ، وهى تستخدم أداة للاحتجاج والانتقام ، وتصبح أساس كثير من أنواع الإعلاء ، وتتحول الطاقة بعد ذلك الى الجهاز البولى[3] باعتباره مخرجا من مخارج الجسم .

ومن المناطق التى تتركز فيها الغريزة مركز الاحساس البصرى أو العين فالتلذذ عن طريق البصر برؤية الألوان والأشكال مما يظهر فى الأطفال بشكل واضح ، وينتهى الأمر بتركز الحساسية فى النهاية فى أعضاء التناسل[4] بعد أن تكون قد تركت أثرا واضحا فى كل منطقة أخرى مرت بها فتصبح الحساسية الجنسية الرئيسية مركزة فيها ، بينما تبقى المناطق الأخرى محملة بشىء من الحساسية يختلف باختلاف ظروف التطور الذى مر بها .

---

(١) Oral Phase (٢) Anal Phase

(٣) Ureteral Phase (٤) Genital Phase

### التثبيت[1] :

ولهذا الاختلاف قصة يحسن بنا أن نوردها هنا . فالغريزة عند ما تتركز فى منطقة من المناطق انما تمهد للمنطقة التالية ، ولكن يحدث أحيانا أن يكون هذا الانتقال ناقصا مبتورا وأن يبقى قدر كبير من الطاقة متعلقا بالطور البائد لا يتركه ، ويطلق على مثل هذه الحالة "التثبيت" وينتج عنه أن يبقى من الحالة البدائية ، نصيب أكبر من الطبيعى ، ويبقى السلوك البدائى عالقا بالشخصية ، ومن ذلك ما نراه فى حالات الشذوذ الجنسى على اختلافها .

### تطور أهداف الغريزة :

ويصحب هذا التطور فى مناطق الحساسية الجنسية ، تطور فى أهداف الغريزة فالغريزة فى مبدأ الأمر لا ترمى الى هدف ما غير مجرد اللذة الموضعية ، فلا يكون هناك اتجاه نحو شخص أو شىء معين .

أى أن اللذة تكون غير مرتبطة بالذات فى مجموعها بل بالعضو فى ذاته ، فلذة الفم عند الطفل الرضيع فى مبدأ حياته متعلقة بالفم ذاته ، وليست لذة للشخص فى مجموعه كما هو الحال عند الكبار .

وتتطور هذه اللذة الموضعية الى حالة تتعلق بالشخص أو بالذات ، فيصبح الشخص نفسه موضعا للحب وينشأ مايسمى عشق الذات ، أو كما يسميها فرويد "النرجسية" [2] نسبة الى نرجس "نارسيس" فى الأسطورة اليونانية وهو شاب جميل الصورة كان يفكر فى الزواج وأرادت أخته أن تصرفه عن الزواج ، فذكرت له أنها ستُريه فتاة تفوق فتاته فى الجمال ، وذهبت به الى بئر وطلبت منه أن ينظر فيها فرأى صورته فى صفحة الماء . وما كاد يرى هذه الصورة حتى هام بحبها ، وانصرف عن فتاته ، وأصبح لا يسلو التردد على بئره ليرى فتاته الموهومة ، التى هى فى الواقع صورة وجهه .

---

(1) Fixation

(2) Narcissism

وتمر مرحلة النرجسية وتتلوها مرحلة يتعلق فيها الحب بأشخاص خارجين يكونون أولا من جنسه ثم من الجنس المقابل . فتعلق البنت بالبنت والولد بالولد يسبقان تعلق البنت بالولد والولد بالبنت ، ويشاهد ذلك فى الطفولة المبكرة كما يشاهد فى بدء المراهقة .

ونلخص هذه الأطوار فيما يلى :

أولا — الحب غير الموجه[١] .

ثانيا — الحب الموجه .

(ا) نحو الذات[٢] .

(ب) نحو أشخاص آخرين[٣] .

(١) من نفس الجنس[٤] .

(٢) من الجنس الآخر[٥] .

وكل دور من هذه الأدوار يعتبر تمهيدا للدور الذى يليه ، كما حدث بالنسبة لمكونات الغريزة ، وكل دور يحدث فيه الاعلاء والتثبيت بنفس الكيفية التى سبق أن تكلمنا عنها .

ويقتضى تطور الحياة العقلية ، أن تُنسق هذه المكونات ، وتنظم تحت قيادة غريزة التناسل الحقيقية " فى البلوغ " فتمهد لها كما قلنا من الوجهة التطورية ، أى أنها تهيء الحدث لحياته الجنسية الناضجة ، ولكنها تبقى حتى بعد البلوغ لتخدم عملية التناسل الحقة . فاذا حللنا هذه العملية الأخيرة فإننا نجد أن الدور الذى تقوم به العين والفم والاحساس الجلدى العام ، دور له علاقة مباشرة بالتمتع الجنسى ، ولزيادة الايضاح نذكر بعض الأمثلة .

فالرؤية — موجبة[٦] أو سالبة[٧] — لها أهميتها فى التمهيد الجنسى ، بل إنها أمر أساسى ، لأن الأليف فى الأحوال العادية يعرف أليفه بالنظر ، ويغلب

---

(١) Auto-Erotic (٢) Narcissistic (٣) Allo-Erotic (٤) Homosexual

(٥) Heterosexual (٦) Skoptophillic (٧) Exhibitionistic

أن يكون الاختيار مبنيا عليه ، سواء فى الانسان أو الحيوان . كما أن الرغبة فى اجتذاب الجنس الآخر تستغل هذه النزعة ، فيبدو كل جنس فى الزينة التى تجتذب الجنس الآخر ، وتسهل له غزوه ، وتمهد السبيل إلى تكوين النسل .

أما الفم فلا سبيل إلى المبالغة فى علاقته المباشرة بالغريزة ، وقد كانت القُبلة دائما ذات معنى جنسى واضح ، وهى وثيقة الصلة بالاتصال الجنسى . ولا شك فى أن القُبلة من الوظائف التى تستوقف النظر لكثرة ماتؤديه من المعانى . فهى بالنسبة للأطفال متعة فى ذاتها ، ولذة كاملة مستقلة ، أما فى البالغين فهى تمهيد وخدمة لما هو معلوم من الاتصال الجنسى ، ولكنها تبقى فى الكبار لتخدم أغراضا أخرى كالحنان والصداقة . . . . الخ مما يبين أنها تستبقى قدرتها على الاستقلال وعلى أن تكون غرضا لذاتها .

وهذه النزعة لأن يستبقى المرء مكونات الطفولة بعد انتهاء وظيفتها التمهيدية الحيوية هى ما سميناه ( بالتثبيت ) والتثبيت شائع فى جميع مكونات الغريزة ، ومن الطبيعى أن يحدث قدر معين من التثبيت فى جميع المكونات — ولكن إذا زاد التثبيت عن هذا الحد خرج الشخص عن كونه طبيعيا وأصبح التثبيت عرضا من أعراض المرض النفسى .

والمرور من إحدى المراحل إلى المرحلة التى تليها يقتضى أن يحدث الاعلاء بالنسبة للمرحلة المنقضية ، فتتحول طاقتها إلى مجرى يجعل منها أداة للتقدم الخلقى والاجتماعى للفرد ، أى أنها تنحرف عن الهدف الجنسى إلى أهداف غير جنسية بينما تخلى الطريق للمرحلة التالية ويتكرر ذلك من مرحلة إلى أخرى .

وهذا هو المقصود من إعلاء الغريزة الجنسية ، فالإعلاء كما قلنا من قبل يندر أن يحدث بالنسبة للغريزة فى صورتها الأصلية الناضجة ، وإنما يحدث أغلبه بالنسبة لمكونات الغريزة وهى فى طريقها لإعطاء الغريزة صورتها النهائية .

وما يحدث بالنسبة لهذه المكونات من التجمع نحو المركز وهو " التناسل " ، سواء من وجهة التطور أو من وجهة التمهيد الوقتى هو ما يسمى بتكامل الغريزة أى بتساند مكوناتها لكى تكون كُلًّا واحدا ، أو صورة كاملة ، تتجه خطوطها نحو مركز واحد هو استمرار الجنس .

ومنه نشتق معنى آخر وهو أن الطفل من يوم ولادته إنما يمهد لهذه الخطوة النهائية لكى يؤدى وظيفته الحيوية لاستمرار نوعه ، فيمر فى " خبرات " جنسية متعددة الأشكال والنواحى ، متدرجة من الاحساس العام الغامض ، الذى لايكاد يرمى إلى غرض ما ، إلى الشبق الجنسى المركز الذى يرمى إلى غرض محدّد .

والغريزة فى الحالتين تدفعه إلى التماس الاشباع دفعا شديدا .

ولكن الطاقة الغريزية أكثر مما يحتاجه لأداء هذه الوظيفة ، وعلى ذلك فيتبقى عنده رصيد كبير يستخدمه فى اعلاء نزعاته ، وتوجيهها نحو الرقى له وللمجتمع الذى يعيش فيه .

فتتحول النزعة نحو العبث بجسمه وأعضائه إلى النزعة نحو التشكيل والبناء واستخدام اليدين والأدوات فى الوصول إلى أغراض يحدّدها فكره الخاص أو الفكر الإنسانى العام ، ومن هذا الطريق ينشأ الميل عند الفنان ، والبنّاء ، والمهندس ، والعامل ، والزارع ، إلى آخر مايجد الإنسان من الفرص للتعبير عن هذه النزعة البدائية فى صورة راقية من وجهة النظر الخلقية والاجتماعية .

وكذلك تتحول النزعة نحو التلويث إلى نزعة نحو الإنتاج والخلق والإبداع ، والنزعة نحو " الإمساك " إلى الاقتصاد والجمع والادخار ، وينشأ الخُلُق مصطبغا بصبغة الكرم والعطاء ، أو بصبغة البخل والإمساك ، " لاحظ الاستعمال اللفظى فى اللغة " .

كما أن النزعات المضادة " الكابتة " تعلى أيضا ، فتحصل على صفات مثل حب النظافة ، والنظام ، والدقة ، والمواظبة ، والطهر ، والإرادة ، والعزم ، إلى غير ذلك .

ولنعد إلى تطوّر الهدف الذى ترمى اليه الغرائز ، فهى فى أول الأمر كما قلنا غير موجهة ، فكل غريزة تبحث عن إشباع ذاتى ، فلذّات الطفل الصغير غالبها من هذا النوع ولكن تبقى فى حياتنا آثار واضحة لنزعة الاشباع الذاتى .

فالتدخين ، والغرام بطعم الحلوى ، وما اليها من المهيجات الموضعية للفم ، كالمخللات والأفاوية " كلها ترمى جزئيا إلى إشباع موضعى ، ومن قبيل

ذلك ايضا الاستمناء ، وحك الجلد ، فهى كلها لذات تظهر عليها صفة الموضعية .

وفى الدور الثانى وهو دور عشق الذات أو " النرجسية " تتجه غرائز الطفل إلى موضوع محدد ، ولكن الموضوع فى هذه الحالة هو الطفل ذاته ، فهو معنى بنفسه ، مشغول بجسمه ومظهره ، وعقله ، فليس بينه وبين غيره من الناس ذلك الاتصال النفسى السليم ، فهو لا يهتم بغيره اهتماما كافيا لأن طاقته العقلية موجهة إلى داخله ، فهو يعرض نفسه ، ويتلذذ من هذا العرض ، ويُعجب بما يقول وما يفعل ، وتبدو فيه " الأنانية " ، والعزوف عن " الروح الاجتماعية " بشكل واضح . ولاشك أن خروج الطفل من هذا الدور لا يعنى انعدام اهتمامه بنفسه ، بل بالعكس ، يبقى قدر من هذا الاتجاه عند الكبار ومن الطبيعى أن يتبقى قدر معقول منه — ولكن من غير الطبيعى أن يبقى لاصقا بالبالغ قدر كبير مما كان عنده وهو طفل . وأعراض ذلك أن يكون الشخص شديد الاهتمام بنفسه ، قليل الاهتمام بالناس وبالعالم الخارجى ، مشغولا بجسمه ، وفى الحالات الكبيرة الشذوذ يكون شديد الانشغال بما يدور فى نفسه ، حتى إنه لا يسهل عليه تتبع مايدور حوله ، ولاتتكون بينه وبين محيطه تلك الصلة العقلية السليمة ، فاذا تطرف الشخص فى ذلك تطرفا كبيرا ، أدى ذلك به إلى نوع أو آخر من المرض العقلى أو الجنون ، وكل أنواع الجنون تتضمن قدرا من الانشغال بالنفس ، والانسحاب من العالم الخارجى ، ويكفى لكى نقدر ذلك ، أن نزور أحد مستشفيات الأمراض العقلية ، فان أول ما يجابهنا فيها أن نرى المرضى الذين يعيشون معًا لا يكوّنون جماعة بالمعنى المألوف لنا ، بل هم أفراد متنافرون ، كل منهم يتحرك ويعيش فى عالم عقلى مستقل ، بالرغم من أنه يجمعهم فراغ واحد . فلا صداقات ولا اجتماعات ، ولا اتصالات بين اثنين أو أكثر بل انفصال يكاد يكون تاما . كل منهم يتحرك فى محيطه الخاص ، ويخلق لنفسه جوّا من الخيال منفصلا عن الجو الواقعى ، ويحقق آماله عن طريق الوهم فى هذا الجو ، بدل أن يكلف نفسه مشقة تحقيقها فى عالم الحقيقة .

ولا شك فى أننا جميعا نحدر انحدارا وقتيا إلى هذا الانسحاب والانطواء على النفس ، وخصوصا فى حالة أحلام اليقظة والاستسلام إلى الخيال .

وليس معنى هذا أن الخيال بالضرورة من علامات الاضطراب العقلى ، فإن قدرا معقولا منه لابأس به ، بل هو مفيد من بعض الوجوه ، فهو يمثل صمام الأمن فى حياتنا العقليـة ، ننفّس بواسطته عن الرغبات والنزعات المكبوته ، التى لا تجد طريقها إلى التحقق فى عالم الواقع ، ثم إنه يعتبر فى بعض الأحيان تمهيدا للوصول إلى الأغراض الحيوية ، إذ أن الخيال يعتبر نوعا من التفكير والتجربة فى سبيل الوصول إلى الغرض ، وكثيرا ماتدفعنا اللذة المشتقة من الخيال إلى بذل الجهد لالتماسها عن طريق الواقع ، وإنما يصبح الخيال ضارا وغير طبيعى ، إذا زاد حدوثه عن حد معين ، وإذا كان انغماس الشخص فيه بحيث يفقده الاتصال بعالم الواقع ، والحَكَم فى ذلك السهولة التى يستطيع بها الشخص أن ينتقل إلى عالم الواقع فما دام الأمر لم يخرج زمامه من الشعور فلا بأس به ، أما إذا خرج الزمام ، فانه يبدأ فى أن يكون عرضا مرضيا يحتاج إلى العناية بأمره . ولاشك فى أن من الطبيعى أن يكون عند الأطفال قدر معين من عشق الذات كما أن المجتمع يحتمل من النساء مالايحتمله من الرجال فى هذا الصدد .

ولمرحلة النرجسية أدوار متعددة يتعلق عشق الفرد فيها بنواح مختلفة من ذاته ، ففى الدور الأول من أدوار النرجسية ، يكون عشق الشخص لنفسه كما هى ويبقى أثر ذلك لدرجة معينة طول حياته ، والدور الذى يلى هذا هو عشق الشخص لنفسه كما يُحبُّ لها أن تكون ، وذلك بدء تكوين المثل العليا فى حياة الشخص ، وبدء تكون " الأنا العليا " التى ذكرنا مالهـا من الأثر الخلق فى حياة الفرد . وهـذا فى الواقع نوع من الإعلاء لنزعه عشق الذات وهو من أهم منابع الخُلق فى حياة الفرد والجماعة .

وعندما تنقضى مرحلة النرجسيـة تبدأ المرحلة التاليـة فى حياة الطفل وهى مرحلة العشق الخارجى ، فيتجه الحب فيه إلى موضوع خارجى سواء أكان شيئا أم شخصا ، ويختار الإنسان ما يحبه فى هذه الحالة عن طريق الاشتقاق من نزعاته الأولى ، وعلى ذلك فهناك طائفتان من الأشياء التى تكون موضع الحب .

الأولى مشتقة اشتقاقا مباشرا من عشق الذات ( النرجسية ) .

والثانية مشتقة منها اشتقاقا غير مباشر لأنها ترمى إلى حب الأشخاص الذين يجيبون الرغبات ( الأب والأم ) .

فنى الأولى يحب الشخص أشياء تكون شبيهة :

( ١ ) بذاته كما هى .

( ٢ ) « « كانت .

( ٣ ) بما هو جزء من ذاته .

( ٤ ) بذاته كما يُحبُّ أن تكون .

وأما فى الثانية فتكون الأشياء شبيهة :

( ٥ ) بالأم التى تُغذّى .

( ٦ ) بالأب الذى يحمى .

فنى الحالات الأربع الأولى يكون تحوّل الطاقة الغريزية عن طريق النزعة النرجسية أما فى الحالتين الأخيرين فهو عن طريق النزعات البدائية لإشباع الحاجات الحيوية عن طريق الغير " الأب والأم " .

فنى الأولى يختار الانسان لمحبته شخصا يشبهه وذلك من أبسط أنواع الابدال.

وفى المشاهدات العادية نجد كثيرا ممن يحبون مشابههم . ولكن المشابهة قد تكون مادية أو " معنوية " كالمشابهة فى الملامح أو اللون أو فى القامة ، أو فى الذكاء أو الخُلق ، أو المركز الاجتماعى[1] ، ومن نواحى الشذوذ فى هذا النوع من الحب ما يعرف بالاتصال الجنسى الشاذ " الوحيد الجنس " .

وفى الحالة الثانية يكون الاختيار بين أشخاص يشبهون الذات كما كانت فى وقت ما ، فيختار الرجلُ أو المرأةُ اللذان جاوزا حدّ الشباب ، من كان يشبههما فى فترة الفتوة والجمال . ومن هذا القبيل الزيجات التى يكون فيها التفاوت فى السن كبيرا . وينتج ذلك عن نوع من التثبيت ، يكون قد حدث بالنسبة لفترة معينة من سن الشباب ، وينصبُّ الاختيار على أشخاص يمثلون هذه الفترة بكيفية ما .

وفى الحالة الثالثة — تتجه المحبة إلى الأبناء ، ومن اليهم لأن الابن يمثل قطعة من النفس — خصوصا بالنسبة للأم — ولذلك كثيرا ما نجد الأم الشديدة

---

(١) ومن قبيل ذلك أنواع "التعصب" المختلفة من وطنى وعنصرى ودينى وقبلى . . . . الخ .

المحبة لنفسها ، شديدة المحبة لأبنائها ، بينما قد تكون فاشلة فى حب زوجها ، لأنه لا يمثل نفسها ولا جزءا منها .

وكثيرا ما نجد أن الانسان يعتبر أن كل شىء بذل فيه جهدا خاصا ، أو تعب فى تكوينه والعناية به ، كأنه جزء من نفسه فيضفى عليه المحبة ، كما فى حالة الأبناء تماما .. ومثال ذلك حب جامع التحف لتحفه ، والمؤلف لكتبه ، والمخترع لاختراعه ، والمعلم لتلاميذه ، إلى غير ذلك مما نشاهده كثيرا فى حياتنا اليومية .

وفى الحالة الرابعة ، يحب الشخص من يشبه نفسه كما يحب أن تكون ، فيختار مثله العليا فى الجمال ، أو الصحة ، أو الذكاء ، أو الخلق ، ويخصها بمحبته ، فكأنه يلتمس فى محبوبه ما ينقصه من الصفات الجثمانية والخلقية ، وقد تكون هذه نقيض صفاته ، فيختار من يعوض النقص الموجود فيه ، والحب فى هذه الحالة يصل بنا إلى عكس النتيجة التى يوصلنا اليها فى الحالة الأولى .

أما الحالتان الخامسة والسادسة ، فالحب فيهما مشتق من المحيط العائلى ففى الخامسة يحث الشخص عمن يعيد اليه شعوره بالعناية ، والحدب ، والحنان ، والرعاية ، وأمثال هؤلاء لا يسعدون إلا مع زوجات يؤدين الوظائف المادية والعاطفية التى كانت تؤديها الأم . وكثيرا ما يفشل زواجهم عند ما يقصر ما تقوم به الزوجة ، دون الحلول محل ما كانت تقوم به الأم . أما فى السادسة فيبحث الشخص "المرأة فى الغالب" عن الرجل الذى يقوم لها بالحماية ويكفل الأمن والطمأنينة التى كان الوالد رمزا لها .

## عقدة أو ديب :

ويبدأ تحديد هذه الميول المختلفة من عهد الطفولة ، إذ يكون للمحيط العائلى أثر عميق فى نفس الطفل ، وله بناءً على ذلك أثر كبير فى تكييف سلوكه فيما يلى من حياته .

وهذه الميول ليست بالبساطة التى قد نتوهمها ، بل هى معقدة غاية التعقيد ، ومتشابكة بعضها مع البعض غاية التشابك . وفى محيط العائلة تتكون

عواطف الطفل نحو أبويه ونحو أخوته ، فاذا خرج عن النطاق العائلى الضيق إلى المجتمع الواسع ، فان العواطف التى يكونها فى هذا النطاق الواسع تكون صورة طرزية أو عكسية أو معدلة ، لعواطفه العائلية الأولى ، فهى مشتقة منها على كل حال . فعلاقاته بزملائه ، أو برؤسائه ، أو بمرؤوسيه ، أو بالأصدقاء ، أو بالغرباء ، أو بالمواطنين ، أو بزوجته وأبنائه فيما بعد ، كل هذه إنما تنبع فى الأصل ، من علاقاته العائلية الأولى ، ولكن بعد أن يتناولها كثير من التغيير والتبديل حسب الظروف .

فقد يكون الطفل مطيعا غاية الطاعة ومحبا غاية الحب لوالديه ، فاذا كبر كان متمردا على رؤسائه كارها لهم ، وقد يحدث العكس فيكون سلوكه نحوهم صورة مطابقة لسلوكه نحو أبويه . وذلك راجع إلى انه ليس هناك شئ اسمه العاطفة النقية الخالصة فى حياة الانسان ، فالعقل يحتضن العاطفة وضدها فى وقت واحد ، فالعاطفة نحو كل من الأم والأب عاطفة ثنائية معقدة .

فالأم هى المركز الخارجى الأول لعواطف الطفل كما سبق أن ذكرنا لأنها الوسيط لإجابة رغباته الملحة ، وعلى ذلك فحبه يتركز كله نحوها فى بادئ الأمر . والحب يدعو إلى الاستئثار وعلى ذلك فالطفل يريد أن يستأثر بأمه استئثارا تاما لا فى وقت حاجته المادية اليها — الغذاء وما اليه — بل فى كل وقت . وهو يدعوها اليه نهارا وليلا ، ويتئمس أشد الإيتئاس اذ لا يحصل على بغيته — وعلى ذلك فهو يغار عليها ، يغار عليها من إخوته ، وذلك مشاهد ملموس ، ويغار عليها من مشاكلها العديدة التى تدعوها بعيدا عنه ، ولكنه يغار عليها أولا وفوق كل شئ من الشخص الذى يجد أنها تعطيه من نفسها أكثر مما تعطى أى شخص آخر ، وهو الأب ، فالأب يستأثر بالأم متى شاء ، بل إنها تقضى معه جانبا كبيرا من وقتها ، وخصوصا ليلا ، اذ تنام واياه فى مكان واحد ، وتترك طفلها وحيدا ، ويتنبه عقل الطفل جيدا إلى هذا المنافس القوى فيتكون عنده الحقد عليه والغيرة منه .

فالشعور البدائى اذن هو شعور بالمحبة الشديدة للأم[1] ، والرغبة فى الاستئثار بها ، وشعور بالكراهية الشديدة للأب والغيرة من تفوقه وتملكه للأم .

---

(١) المحبة هنا شعورية تقابلها كراهية لاشعورية ( أنظر ص ٥٧ وما بعدها )

ولكن هذا لا يدوم طويلا لأن الطفل كما قلنا ، يمتص من الأم عواطفها ويندمج فى شخصيتها ، فهو بالتدريج يُحبُّ ما تُحبُّ الأم ومن تُحبُّ ، حتى ولو كان ذلك ضد رغباته الغريزية التى يتناولها الكبت فى هـذه الحالة . ويحدث هـذا بالضبط فى حالة الأب فهو موضع محبة الأم والتفاتها ، وعلى ذلك فهو شخص يجب أن يُحبَّ ، ويصبح فعلا محبوبا من الطفل عن هذا الطريق ، وأما الكراهيـة الاصلية فانها تكبت ، وتصبح لا شعورية ، وعلى ذلك يصير الأب محبوبا فى الشعور مكروها من اللاشعور . بل إن صفات الأب ومظهره يصبحان محل اعجاب الطفل ، وتصبح له رغبة شديدة فى التحلى بها حتى يفوز من التفات الأم بمـا يفوز به الأب .

وهذه الحالة من حالات "الثنائية" فى العواطف أو "التناقض" فيها . ومن الغريب أن الأمر لا يقف عند هذا الحد إذ أن هذا الموقف يؤدى إلى أن تصبح الأم منافسة فى حب الأب فتتجه نحوها كراهية لا شعورية[1] .

وقد تتعقد الصورة أكثر من ذلك خصوصا بالنسبة لجنس الطفل ، فالطفل الذكر يميل فى الغالب إلى أن يكون حبه لأمه وكراهيته لأبيه ، وبالعكس بالنسبة للطفل الأنثى وقد تحدث مضاعفات أخرى . وهكذا .

وهكذا يكتسب الطفل من محيطه العائلى مجموعة من العواطف المعقدة المتناقضة ، تتركز حول الأب والأم — وقد أطلق على هـذه المجموعة اسم "عقدة أوديب"[2] نسبة إلى أوديب الملك الذى قيل إنه قتل أباه وتزوج أمه .

وفى الغالب تكون المحبة هى الصورة الواضحة للعلاقة بين الطفل وأبويه بينما تكون الكراهية مكبوتة — وهذه الكراهية المكبوتة تجد الطريق إلى التعبير عن نفسها عن طريق الابدال ، فكثيرا ما يختص الطفل بكراهيته الشديدة — فيما بعد — أناسا يشبهون الأب من حيث المنظر أو السلطة أو الوظيفة ، وكثير من الثائرين والمتمردين انما يعبرون بثورتهم وتمردهم عن الكراهية المكبوتة للأب الذى يظهرون له ويشعرون نحوه — بحق — بكل محبة واحترام .

وكذلك بالنسبة للأم ، فان شعور الكراهية المكبوت قد ينصب فيما بعد على الزوجة أو الحبيبة أو على جنس النساء بوجه عام .

---

(١) Flugel : Psychoanalytic Study of the Family. (٢) Oedipus Complex

ويأتى بعد ذلك دور الإخوة فكل منهم منافس ، وكل منهم ينال نصيبه من المحبة والكراهية ، فى الشعور أو فى اللاشعور ، وكل هذه العواطف قابلة للإبدال والاعلاء فى مستقبل حياة الطفل .

ويتوقف قدر كبير جدا من الخلق الشخصى والسلوك الاجتماعى على أنواع الابدال والاعلاء التى تحدث بالنسبة لألوان المحبة والكراهية التى تنشأ فى محيط العائلة .

فاذا حدث " تثبيت أبوى " قوى عند الطفل ، فإنه يجد من الصعب عليه جدا فيما بعد ، أن يتزوج ، أو يترك منزل العائلة ، أو أن يستقل بنفسه ويخرج إلى الحياة ، لأنه لا يستطيع الفكاك من الموقف العائلى الذى يلاحقه ، حتى بعد أن تراك طفولته بزمن طويل .

وكثيرا ما يجرى الفرد وراء تكرار مواقف طفولته فيما يلى من حياته ، فهو يحب أولئك الذين لغيره حق عليهم — مكررا بذلك موقف المنافسة للأب فى محبة الأم ، فهو يحب المرأة المخطوبة أو المتزوجة ولا يرضى بها بديلا ، ولا تجتذبه امرأة خالصة مهما كان فيها من المغريات الذاتية ، لأن ما يجتذبه هو الموقف الذى مر به وهو طفل — وقد كان فى أمثال هؤلاء معين لا ينضب لكتاب القصص والروايات .

أما التطور الأمثل فانه يحدث بكيفية تدريجية ، ويتجه نحو الاستقلال التدريجى عن الأب والأم . فيحدث عند الطفل ( فطام ) نفسى تدريجى ، كالفطام من الرضاعة . أى أنه يستطيع أن يستقل بعواطفه ، ويجد لها متكآت أخرى ، فيما يجده من لعب ودرس وسعى فى الحياة وعلى ذلك يصبح حرا فى أن يكون عواطف جديدة ، ويحب ويتزوج طبقا لمبادئ لاتكون بالضرورة تكرارا لمواقف الطفولة الاولى . وذلك لا يمنع أن يكون متأثرا بها ، ولكن الأثر يدخل عليه التعديل عن طريق الاعلاء ، فلا يبقى له طابع الصراع والكفاح والتقيد العنيف الذى يبدو فى حالات التثبيت .

وبهذه الكيفية يمكن أن ينتقل ولاء الشخص بسهولة من المحيط العائلى الضيق إلى محيط الحياة الواسع ، فالولاء للأصدقاء وللعمل وللوطن . . . الخ يصبح ممكنا إذا أمكن الفكاك من القيود العائلية الأولى .